مداخل علم الأسلوب إلى الدّراسات القرآنية

حاج علي عبد الرحمان
طالب دكتوراه – جامعة مستغانم
تحت إشراف أ.د. أحمد عزوز

يرجع أصل الدّراسات اللّغوية العربية إلى محاولة فهم النّص القرآني وتفسيره، وصيانة اللّسان العربي من اللّحن، وحفظ اللّغة من أن تتعرّض للفهم الخاطئ، وممّا هو مسلَّمٌ به أنّ "أهمّ خصائص ارتقاء الأسلوب كائنٌ في التّميز والتفرّد، ولو جاء القرآن على مِثل كلام العرب في الطّريقة والمذهب، وفي الصّفة والمنزلة –لما صلح أن يكون سبباً لما أحدثه، ولذهب مع كلام العرب، ثم لتدافعته العصور والدّول إن لم يذهب، ثم لبقي أمره كبعض ما ترى من الأمور الإنسانيّة لا ينفرد ولا يستعلي"[1]، ولكن الأمر غير ذلك حيث أنّ للقرآن أسلوباً مبايناً لكلّ ما عُرف من أساليب البلغاء في ترتيب خطابهم وتنزيل كلامهم، وليس في أسلوبه شيء يغضُّ من موضعه أو يذهب بطريقته أو يدخله في شبهٍ من كلام النّاس، أو يردّه إلى طبعٍ معروفٍ من طِباعِ البُلغاء[2]، وذاك مكمن إعجازه اللّغوي والبياني، "وهذا الأسلوب فإنّما هو مادّة الإعجاز العربي في كلام العرب كلّه، ليس من ذلك شيءٌ إلاّ وهو معجز، وليس من هذا شيء يمكن أن يكون معجزًا"[3]. فمهما ارتقت تعابير البشر وأساليبهم فإنّها لا تدنو من أسلوب القرآن الكريم.

وبما أنّ الأساليب تختلف حتّى في كلام البشر، حيث نجد كلّ واحدٍ يبدع ويبرع بأسلوبه الخاصّ، فلا غرابة في أن يكون "أسلوب القرآن الكريم هو طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامِه واختيارِ ألفاظه، ولا غرابة أن يكون

للقرآن الكريم أسلوبٌ خاصٌّ به، فإن لكلّ كلامٍ إلهي أوبشري أسلوبه الخاص به وأساليب المتكلّمين وطرائقهم في عرض كلامهم من شعرٍ أو نثر تتعدّد بتعدّد أشخاصهم، بل تتعدّد في الشّخص الواحد بتعدّد الموضوعات الّتي يتناولها، والفنونِ التي يعالجها"[4]، وسارت الدّراسات الأسلوبية على هذه المعطيات، حيث لا يتمّ فرض خصائص نصٍّ معيّن على نصٍّ آخر؛ في حين يمكن المقارنة والمقاربة بين النّصوص.

من مميّزات القرآن الكريم أنّ أسلوبه يأتي على درجةٍ "من اللّين والمطاوعة على التّقليب والمرونة في التّأويل، بحيث لا يُصادم الآراء الكثيرة المتقابلة الّتي تخرج بها طبائع العصور المختلفة، فهو يفسَّر في كلِّ عصرٍ بنقصٍ من المعنى وزيادةٍ فيه، واختلافٍ وتمحيص، وقد فهمه عرب الجاهليّة الّذين لم يكن لهم إلاّ الفطرة، وفهمه كذلك من جاء بعدهم ثمّ الفلاسفة وأهل العلوم، وفهمه زعماء الفِرق المختلفة على ضروبٍ من التّأويل، وأثبتت العلوم الحديثة كثيراً من حقائقه الّتي كانت مغيَّبة، وفي علم الله ما يكون من بعد"[5]، فهو صالحٌ لكلّ زمان ومكان.

- **إعجاز القرآن – مؤلَّفات وأعلام -:**

يعتبر البحث في النّص القرآني منطَلق الدّراسات اللّغوية والبلاغيّة العربية، أمّا بخصوص أولى الدّراسات المتخصّصة في إعجاز القرآن فيقول الرّافعي: صنّف أديبنا الجاحظ المتوفى سنة 255هـ كتابه (نظم القرآن)، أولّ كتابٍ أفراد لبعض القول في الإعجاز أو فيما يهيئ القولَ به، غير أن أوّل كتابٍ وضع لشرح الإعجاز وبسط القول فيه على طريقتهم في التّأليف، إنّما هو فيما نعلم كتاب (إعجاز القرآن) لأبي عبد الله محمد بن يزيد الواسطي المتوفي سنة 306هـ، وهو كتابٌ شرحه عبد القاهر الجرجاني شرحاً كبيراً سمّاه

(المعتضد)، وشرحاً آخر أصغر منه. ولا نظنّ الواسطي بَنَى إلاّ على ما ابتدأه الجاحظ، كما بنى عبد القاهر في (دلائل الإعجاز) على الواسطي، ثم وضع أبو عيسى الرُّماني المتوفى سنة 382هـ كتابه في الإعجاز، فرفع بذلك درجةً ثالثة، وجاء القاضي أبو بكر الباقلاّني المتوفى سنة 403هـ فوضع كتابه المشهور (إعجاز القرآن)... عهد هذا التّأليف لا يُردُّ في نشأته إلى غير الجاحظ[6]، من هذه الالتفاتة التّاريخية للرافعي يظهر أنّ الجاحظ هو أوّل من كتب في إعجاز القرآن، ثمّ توالت بعده الأعمال الّتي استفادت من بعضها البعض.

ونظراً لتداخل الدّراسات اللغوية الأولى، نجد المؤلّفات البلاغية تحمل في طيّاتها مباحث من إعجاز القرآن، "وممّن ألّفوا في الإعجاز أيضًا على وجوهٍ مختلفة من البلاغة والكلام وما إليهما: الإمام الخطابي المتوفّى سنة 388هـ، وفخر الدين الرازي المتوفّى سنة 606هـ، والأديب البليغ ابن أبي الإصبع المتوفّى سنة 654هـ، والزّملكاني المتوفى سنة 727هـ وهي كتبٌ بعضها من بعض"[7]، أي أنها أعمال تعالج ن المباحث، وتحمل نفس الاستنتاجات والمعلومات، كونها تعتمد في الغالب على نفس المنطلقات والمرتكزات المنهجيّة والمرجعيّات العلميّة.

ومن أبرز من ألّفوا في الإعجاز البلاغي "الإمام الرازي المتوفى سنة 606هـ، فقد لخّص كتابَي (أسرار البلاغة) و(دلائل الإعجاز) للجرجاني، واستخرج منهما كتابه في إعجاز القرآن وهو كتابٌ معروف[8]، أحسن في نسقه وتبويبه؛ ثمّ الأديب ابن أبي الإصبع المتوفى سنة 654هـ فقد صفّ كتاب (بدائع القرآن) أَوْرَدَ فيه نحو مائة نوعٍ من معاني البلاغة وشرحها، واستخرج أمثلتها من القرآن..."[9]، ولا زالت الدّراسات القرآنية تسير بالوتيرة التي انطلقت

بها تقريبًا، حيث تجد عديد البحوث والمؤلّفات الّتي تحاول استخراج ما تيسّر من درر القرآن الكريم.

ومن بين الّذين عكفوا على تقصّي مواضع الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، الذي رأى أنّ "الإعجاز كامنٌ في النّظم؛ وعلى هذا الأساس مضى عبد القاهر في (الدّلائل) يعرض لوجوه تركيب الكلام ويحلّل الأساليبَ والنّصوصَ المختلفة. سائراً في دراسته على النّهج الذي وضع أصوله هُو محتكماً إلى الذّوق والعُرف اللغوي كثيراً، لافتاً إلى مواطن الحسن والقبح في الأسلوب على أساسٍ من التّوجيه المعلَّل، فكان بهذا رائداً من رواد النّقد الجمالي والذّوق المصفّى دون مُنازع"[10]، ولا يزال كتاب ((دلائل الإعجاز)) يُعتبر مصدراً أساسيًّا في مكتبة الباحث الأسلوبي.

ولمّا كانت دراسات الإعجاز مرتبطة بالدّراسات البلاغيّة، فإنّك تجد "كلّ ما كتبه المتقدّمون في علوم البلاغة وإعجاز القرآن: كالرّماني، والواسطي، والعسكري، والجرجاني، وغيرهم، فإنما ينحون به هذا النّحو من انتزاع أمثلته في القرآن والإضافة في أبوابها، ثمّ ما يُداخل هذه الأبواب من فنون الكلام شعرِه ونثرِه"[11]، فالبلاغة في الأصل وُضعت لتَدَارس القرآن ومحاولة تفسيره وفهم معانيه، ويلخّص الرافعي ذلك بقوله: "إن القرآن كان علم بلاغةٍ عند العرب، ثم صار بعدهم بلاغة هذا العلم"[12]، كونها بُنيت وأُسِّست على ما استُخرج منه من دُرر. فـ"كلّ ما تكشفه كتب التّفسير وكتب البلاغة من دقائق نظم القرآن وأسرار تركيبه، فهو من أدلّة إعجازه"[13]، وهو موردٌ للبلاغة لا ينضب.

ويتشرّف علم البلاغة بدرس إعجاز القرآن، وهو العلم الّذي تتشرّف به إبداعات الخلق؛ "إنّ شعور أبلغِ النّاس بضعفه عن أسلوب القرآن لَيَكونُ على مقدار شعورِه من نفسه بقوّة الطّبع واستفاضة المادّة وتَمكُّنِه من فنون القول

وتقدّمه في مذاهب البيان، فكلّما تناهى في علمه تناهى كذلك في علمه بالعجز"[14]، فلا يتذوّق الفنّ إلاّ فنّان، ولمّا كان العرب ذوي فصاحةٍ وبيان، كانت درايتهم بإعجاز القرآن نابعةً من فطرتهم وعلمهم بفنون القول وسموّ المعاني وجودة السّبك وفصلِ الخطاب.

اكتسبت البلاغة وهي من أشرف العلوم والفنون العربيّة، مكانتها بالبحث في إعجاز القرآن الكريم، و"قد كانت هذه الطّريقة المعجزة الّتي نزل بها القرآن هي السّبب في حفظ العربيّةِ واستخراجِ علومِها، وما كان أصل ذلك إلاّ التّحدي بها، فإن من حكمة هذا التّحدي أن يدعوَهم إلى النّظر في أساليبه ووجه نظمه وتدبُّر طريقته"[15]، ليُدركوا عجزهم بعدما بلغوا من الفصاحة والبلاغة أسمى درجات اللّسان البشري، فيزيدهم ذلك تشريفاً.

- **نظم القرآن:**

تبعت الأسلوبيةُ البلاغةَ في منهج دراسة القرآن، واستفادت كذلك من الطّرائق والوسائل الحديثة، فنجد الدّراسات الأسلوبية تصنّف مباحث البلاغة ضمن مستوياتها التّحليليّة. "والكلام بالطّبع يتركّب من ثلاثة حروف هي من الأصوات، وكلمات هي من الحروف، وجُمل هي من الكلم. وقد رأينا سرّ الإعجاز في نظم القرآن يتناول هذا كلّه بحيث خرجت من جميعها تلك الطّريقة المعجزة الّتي قامت به، فليس لنا بدٌّ في صفته من الكلام في ثلاثتها جميعًا"[16]، صوتاً وتركيباً، ودلالةً تسري في كلّ ذلك.

والتّراكيب الجُمليّة تجمع بين الآثار الدّلاليّة النّاتجة عن التّحليل الصّوتي وكذا الصّرفي، وتجتمع الدّلالات التّركيبية الجمليّة لتشكّل الدّلالات السّياقيّة، ومن كلّ ذلك يتجلّى أسلوبٌ مميّزٌ في النّظم، هو الأسلوب القرآني المعجز. إذن "لابدّ في مثل نظم القرآن من إخطارِ معاني الجمل، وانتزاعِ جملة

ما يلائمها من ألفاظ اللّغة بحيث لا يندُّ لفظة ولا تتخلّف كلمة، ثم استعمال أمسّها رحِماً بالمعنى وأفصحِها في الدّلالة عليه، وأبلغِها في التّصوير وأحسنِها في النّسق، وأبدعِها سَنَاءً وأكثرِها غناءً وأصفاها رونقاً وماءً، ثمّ اطّرادِ ذلك في جملة القرآن على اتّساعه وما تضمّن من أنواع الدّلالة ووجوه التّأويل ثمّ إحكامه على أن لا مراجعة فيه ولا تسامح، وعلى العصمة من السّهو والخطأ في الكلمة وفي الحرف من الكلمة، حتّى يجيء ما هو كأنّه صيغَ جملةً واحدةً في نَفَسٍ واحد"[17]، وأنسبُ طريقةٍ تحليليّةٍ لإدراك المعاني من ذلك، طريقة التّحليل الأسلوبي، الّتي تتعمّق بمباحثها في كلّ ما ذُكر، ومن أوائل من تعمّقوا في نظم القرآن عبد القاهر الجرجاني الّذي اقترح النّظم معيارًا جديدًا لسبر أغوار النّصّ القرآني، والنّظم طريقةٌ مخصوصةٌ في نسق الكلمات بعضها مع بعض، ونوعٌ خاصٌّ من التّأليف والتّرتيب والنّسج والصّياغة، وهو معيارٌ لا تتحدّد قوانينه وأصوله إلاّ من داخل النّصّ القرآني نفسه[18].

- **مباحث الأسلوبيّة في الإعجاز القرآني :**

الأسلوبية باعتبارها وريثة البلاغة تناوَلت مباحث الإعجاز بالتّحليل، وتناولت النّص القرآني بالتدبّر والتّفسير، فبعدما "نظر الكتّاب والشّعراء إلى ما في القرآن من جزالة اللفظ وبديع النّظم وحسن السّياق، والمبادئ والمقاطع والمخالص والتّلوين في الخطاب، والإطناب والإيجاز وغير ذلك، واستنبطوا منه المعاني والبيان والبديع"[19]–ولا زالوا كذلك– نجد علماء اللّغة والبلاغيين والمفسّرين يجدّون في تناولهم لمباحث الإعجاز، ووضع مناهج لدراسة نظمه وتأليفه، فالزمخشري "في تحليله للنّص القرآني يستند إلى مناهج البحث البلاغي من ناحية، والتّركيب النّحوي من ناحيةٍ ثانية، وأفاد من كلّ ذلك في كلّ مستوى من مستويات دراسته، محاولاً الوصول إلى أقصى درجةٍ من التذوّق الانطباعي

أحياناً، والرّصد الموضوعي للخصائص الأسلوبية أحيانًا أخرى، رابطاً بين التّأثير الانفعالي لدى المتلقّي والخصائصِ التّعبيرية في النّص الأدبي عامّةً والقرآني خاصّةً"[20]، وكأنّه سبق زمانه إلى الدّرس الأسلوبي ومنهجه التّحليلي.

أمّا الباقلاّني فيرى أنّ بلاغة القرآن وجهٌ من أوجه الإعجاز، يقول: "بلاغة القرآن الفذّة العجيبة التي حار فيها البلغاء، وعجز عن وصفها الأدباء، وأسلم لها العقلاء والأذكياء، وخضع لها النّاثرون والشعراء، ولم يجدوا لها تعليلاً، ولا إليها مدخلاً وسبيلاً، فأسلم لها البلغاء والفصحاء، وحصروا كلّ هممهم ليس في معارضتها ومحاولة الإتيان بمثيلٍ لها، بل في محاولة تفسيرها وإدراك شيءٍ من أسرارها..."[21]، وهو هنا يبيّن أن الدراسات اللغوية والبلاغية للنّصّ القرآني وإعجازه تكون وفق منهجٍ خاصّ، لا يحتمل فيه النّصّ انتقادًا ولا معارضةً، فهو على أعلى درجةٍ من البيان، وإنّما المبتغى الوصول إلى مواطن الإعجاز فيه، والنّهل من دلالاته ومعانيه.

- **من خصائص أسلوب القرآن :**

يعتبر أسلوب القرآن الكريم أسمى تمثيلٍ لبلاغة اللّغة العربية ورِفعتها، و"ممّا انفردَ به القرآن وباينَ سائر الكلام، أنّه لا يخلق على كثرة الرّد وطول التّكرار، ولا تملّ منه الإعادة"[22]. ذكر الدكتور محمد عبد الله درّاز بعضًا من خصائص الأسلوب القرآني:

- القصد في اللّفظ والوفاء بحق المعنى.
- خطاب العامّة وخطاب الخاصّة.
- إقناع العقل وإمتاع العاطفة.
- البيان والإجمال.[23]

من هذه الخصائص الموجَزة "يخلصُ لنا أنّ القرآن الكريم إنّما ينفرد بأسلوبه، لأنّه ليس وضعاً إنسانياً البتّة، ولو كان من وضع إنسانٍ لجاء على طريقةٍ تشبه أسلوباً من أساليب العرب أو مَن جاء بعدهم إلى هذا العهد، ولا من الاختلاف فيه عند ذلك بدّ في طريقته ونسَقِه ومعانيه"[24]، والدّراسات بلاغيّةً كانت أو أسلوبيّة، تبحث عن مواطن الإعجاز ومواضعه في النّص القرآني، من خلال التّمحيصفي مستوياته التّركيبية، مع الأخذ بالاعتبار أنّ "طريقة نظم القرآن تجري على استواءٍ واحد في تركيب الحروف باعتبارٍ من أصواتها ومخارجها، وفي التّمكين للمعنى بحسّ الكلمة وصِفتِها، ثمّ الافتنان فيه بوضعها من الكلام، وباستقصاء أجزاء البيان وترتيب طبقاته على حسب مواقع الكلمات، لا يتفاوت ذلك ولا يختلّ"[25]؛ ويوضّح الرّافعي هذه النّقطة بقوله: "لسنا نقول إن القرآن جاء بالاستعارة لأنها استعارة أو بالمجاز لأنه مجاز، أو بالكناية لأنّها كناية، أو ما يطّردُ مع هذه الأسماء والمصطلحات، إنما أريدَ به وضعٌ معجزٌ في نسق ألفاظه وارتباطِ معانيه على وجوه السّياستين من البيان والمنطق"[26]، وهذا في كلّ مستويات تركيبه صوتاً وصرفاً ونحواً وبلاغةً ودلالة.

- **<u>هوامش البحث و إحالاته</u>:**

---

1. البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطّلب، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، مصر، ط1، 1994م، ص91.
2. المرجع نفسه، ص91.
3. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1424هـ/2004م، ص131.

4. آيات الله في الإعجاز اللّغوي والبياني والتشريعي والغيبي في القرآن الكريم، ماهر أحمد الصّوفي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، 1429هـ/ 2008م، ص234.

5. إعجاز القرآن، الرافعي، ص143.

6. إعجاز القرآن، الرافعي، ص106.

7. المرجع نفسه، ص108.

8. هو كتاب نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز لفخر الدين الرازي (ت 606هـ).

9. إعجاز القرآن، الرافعي، ص177.

10. خصائص التّعبير القرآني وسماته البلاغيّة، عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ط1، 1413هـ/ 1992م، ص150.

11. إعجاز القرآن، الرافعي، ص177.

12. المرجع نفسه، ص177.

13. المرجع نفسه، ص108، هامش الكتاب.

14. المرجع نفسه، ص130/129.

15. المرجع نفسه، ص165/164.

16. إعجاز القرآن، الرافعي، ص145.

17. المرجع نفسه، ص156.

18. النصّ الدّيني في الإسلام -من التّفسير إلى التّلقّي-، وجيه قانصوه، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 2011م، ص302.

19. إعجاز القرآن، الرافعي، ص84.

20. البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب، ص21.

21. إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلاني، تحقيق وتعليق محمود محمد مزروعة دار كنوز المعرفة، جدة، المملكة العربية السعودية، ط1، 1427هـ- 2006م، ص31.
22. إعجاز القرآن، الرافعي، ص150.
23. إتقان البرهان في علوم القرآن، فضل حسن عباس، دار الفرقان، عمّان، الأردن، ط1، 1997م، ص122/121.
24. إعجاز القرآن، الرافعي، ص141.
25. المرجع نفسه، ص167.
26. المرجع نفسه، ص178

المصادر و المراجع المعتمدة في البحث :

- البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطّلب، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، مصر، ط1، 1994م،.
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1424هـ/2004م.
- آيات الله في الإعجاز اللّغوي والبياني والتشريعي والغيبي في القرآن الكريم، ماهر أحمد الصّوفي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، 1429هـ/ 2008م.
- النصّ الدّيني في الإسلام -من التّفسير إلى التّلقّي-، وجيه قانصوه، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 2011م.
- إتقان البرهان في علوم القرآن، فضل حسن عباس، دار الفرقان، عمّان، الأردن، ط1، 1997م.